الفصل الثاني
أسماء القرآن الكريم

أ ـ جهود الجدود :

ثمة قضايا خمس في الفكر الإسلامي تتخذ فيها المسميات أسماء متعددة وهي : أسماء الله عز وجل وأسماء القرآن وأسماء السور وأسماء النبي عليه الصلاة والسلام وأسماء القيامة .

فللقرآن أسماء : الكتاب والوحي والروح والذكر والفرقان ، وثمة حديث نبوي صحيح يؤكد تسعة وتسعين اسماً لله عز وجل مثل : القادر ، الغافر ، الرحمن ، الرحيم ، المقتدر ، الغفار وبعضها مذكور في القرآن وتسمى أسماء الله الحسنى .

كذلك ورد عن النبي ﷺ عدة أسماء مثل : المصطفى والمختار والماحي والحاشر وأحمد والعاقب[1] ، ونقرأ في نص القرآن ما استنبطه العلماء من أسماء القيامة ، فهي الطامة والصاخة والحاقة والقارعة .

أما السور القرآنية فقد اتخذ بعضها عدة أسماء فزادت الفاتحة على عشرين اسماً ومن يرجع إلى كتب في فضائل القرآن يجد هذه الأسماء مستوحاة من الحديث النبوي .

ونسعى في هذا المبحث إلى تبيان أسباب تعدد أسماء القرآن ، ونصل إلى أشهر الأسماء وما يُعتد به من آراء في هذا الصدد ، وننتهي

---

(١) راجع مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص/ ٣٥ .

إلى لفظة القرآن لغوياً وأهمية هذه التسمية .

يذكر الإمام الزركشي في البرهان أن الحرالي علي بن أحمد (٦٣٨هـ) قد صنّف جزءاً في الأسماء وأنهى أسامي القرآن إلى نيّف وتسعين ، ثم يذكر قول شيذلة القاضي أبي المعالي عُزيزي بن عبد الملك (٤٩٤هـ) وهو واعظ معروف : « اعلم أن الله تعالى سمّى القرآن خمسة وخمسين اسماً »[1] .

وهكذا جعل شيذلة رحمه الله الأسماء القرآنية نصاً منقولاً لا يناقش ، رأي هو من باب التوقيف الإلهي وليس من التوفيق البشري .

لكن الإمام الزركشي لم يذكر الأسماء التي أحصاها الحرّالي الذي بدأ به الكلام مع كونه متأخراً وهذا يدل على التعلّق بالكثرة ، وتلك عاطفة لا تنكر ، إذ اكتفى الزركشي بتعداد الأسماء كما هي عند شيذلة ، فعدّها وبيّن اشتقاقها .

ونقلب النظر في هذه الأسماء ، فنصل إلى نتيجة مفادها أن القرآن اسم فريد لمتن فريد ، بل نستطيع القول : هو اسم مخلوق للمرة الأولى كنزول القرآن ذاته ، ونسوغ سائر الأسماء على أنها صفات .

فالتكلف الواضح يدل على تقديسهم البالغ لنص القرآن ، ومن هذه الأسماء أنه عربي تبعاً للآية : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف : ٢] وفي النحو يتضح أن الكلمة الأخيرة هنا تعرب صفة وأن الاسم الأوحد قد سبقها ، بل جعل للقرآن أربعة أسماء مأخوذة من مكان واحد ، فهو : صحف ومكرم ومرفوع ومطهر ، قال تعالى :

﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [عبس : ١٣ـ ١٤] .

---

(١) البرهان : ١/ ٣٤٣ ، والإتقان : ١/ ١١١ .

ومما عُدّ اسماً « منادٍ » لقوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [آل عمران : ١٩٣] . فكأن القرآن هو الذي كان ينادي ، بل كان منادىً به ، والمنادي هو النبي ﷺ عند جمهور المفسرين .

وذكروا الزبور لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] والزبور هو الكتاب المنزل على داود عليه السلام والذكر هو التوراة ، ولا نحتاج إلى هذا الاقتباس أو الانتشال من أمة أخرى ، وقيل : تعني الزبور جميع الكتب السماوية ، وإن الذكر هو اللوح المحفوظ ، ونتيجة هذا يكون المراد بالزبور الوصفية لا العَلَمية ، فهو بمعنى المزبور[1] .

لابد أن نشير إلى أهمية هذا البحث أو نستنبطها بدلاً من سرد المنقولات الضعيفة والمتناقضة .

كما ينبغي أن نصدر به كل كتاب في علوم القرآن ، بخلاف ما صنع الزركشي إذ بدأ بأسباب النزول ، وجعل الأسماء النوع الخامس عشر ، أما الإمام السيوطي (٩١١هـ) فقد بدأ بالمكي والمدني ، وترك مبحث الأسماء إلى النوع السابع عشر .

والأجدر أن يتصدر المؤلفات لكونه يعرف بهذا الكتاب الأعظم ولأنه مبحث لغوي متعلق بأساس كل علوم القرآن وهو القرآن ذاته ، وهذا ما تفضَّل به الدكتور نور الدين عتر في مؤلفه .

ولم تكن العناية بالأسماء مقتصرة على من ذكرنا من شيذلة القاضي والحرالي والزركشي والسيوطي ، فقد لفتت نظر آخرين هذه الكثرة من الأسماء وفق منظورهم ، وساعد العصر حينذاك من حيث الترف

---

(١) راجع تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٤١ .

الذهني ، على أن خصصت مؤلفات في الأسماء ، مثل « شرح أسماء الكتاب العزيز » للإمام ابن قيم الجوزية (٧٥٠هـ) .

بل جهد المعاصرون وكأنما نضب معين القرآن ففكروا في الأسماء ، وكأنما لم يرشدهم الواقع إلى قراءة علمية وبحث فريد ، فنجد كتاب « الهدى والبيان في أسماء القرآن » لصالح بن إبراهيم البليهي و« أسماء القرآن في القرآن » لمحمد جميل أحمد غازي هذا ما نعرفه فحسب .

إذن أقرَّ بعضهم بتعدد أسماء القرآن فأفردوها بالتصنيف المستقل ، ولهم الحق من الوجهة الدينية والعاطفية ، إذ الاهتمام بالمدلول يعني كثرة الدلالات عليه ، هذا إذا اعتبرناها أسماء ، ولا يوجد كائن لغوي أغلى عند المسلم من القرآن الكريم ، فكثرت لذلك الأسماء .

والواقع يدل على أن كثرة دوران الشيء في اليوميات وأثره في أسلوب العيش ما يعدد أسماءه ، فأكثر ما عاين العربي سيفه وناقته وحصانه والأسد مضرب المثل في الشجاعة .

ولذلك كثرت الأسماء في هذه الحقول الدلالية ، أو لنقل : تطورت الصفات إلى أسماء ، فالسيف صارم وبتار ومهند وصمصام ، فلا غرابة أن يستنبط السلف الصالح أسماء للقرآن الكريم على كثرتها وهي قليلة إذا قورنت بمئات الأسماء للإبل ومئات للسيف وللأسد وغير هذا .

وإلى هذا السبب ألمح الفيروزأبادي (٨١٧هـ) قائلاً : « اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور ، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته ، وكثرة أسماء يوم القيامة دلّت على شدته وصعوبته ، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها ، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلّت على علوّ رتبته وسمو درجته ، وكذلك كثرة أسماء

القرآن دلّت على شرفه وفضيلته »[1] .

ولكن الإمام ابن تيمية (٧٢٨هـ) يقلل من حجم الأسماء بالتواطؤ أي الاتفاق والخصوصية مفرّقاً بذكاء بين الذات والصفة فقال عما يدعى بأسماء السيف : « فإنها تشترك في دلالتها على الذات ، فهي من هذا الوجه كالمتواطئة ، ويمتاز كل منها بدلالته على معنى خاص ، فتشبه المتباينة ، وأسماء الله وأسماء رسوله وكتابه من هذا الباب »[2] .

أما الآلوسي رحمه الله (١٢٧٠هـ) صاحب التفسير المعروف ، فيقول عن الأسماء في بداية تفسيره « روح المعاني » : « كلها ترجع بعد التأمل الصادق إلى القرآن والفرقان رجوع أسماء الله تعالى إلى صفتي الجمال والجلال ، فهما الأصل فيهما » . وهي نظرة صوفية ولكن لا تستبعد وذلك لعقلانية التأمل مع أن اسم الفرقان يفيد الصفة الواضحة لا الاسم .

نستنتج أن الآراء تختلف في عدد أسماء القرآن بين اثنين وما يزيد على التسعين ، لذلك لا نذهب مع الدكتور فهد الرومي إلى أن الأسماء توقيفية ، إذ قال : « أسماء القرآن أو صفاته توقيفية ، ولا نصفه إلا بما جاء في الكتاب أو في السنة النبوية الشريفة »[3] .

فالتوقيف لا مجال فيه للاجتهاد ، وهذه الأسماء توفيقية من باب التأمل ، فكل واحد يذكر رقماً ، وحتى ما اشتهر مثل الكتاب والتنزيل والفرقان والهدى ما نراها إلا أوصافاً ، ولا يحق لغوياً أن نستعيض بالاسم وصفاً إلا إذا اشتهر به الموصوف ، وكان دالاً عليه ، بحيث إذا

---

(١) بصائر ذوي التمييز : ١/ ٨٨ .

(٢) الفتاوى : ٢٠/ ٤٩٤ .

(٣) دراسات في علوم القرآن ، ص/ ٢٣٠ .

حذف الموصوف كان الوصف كافياً في الدلالة .

فيمكننا أن نكتفي بالصمصام للدلالة على السيف فالصفة اشتهرت ، ولا نقول (صحف) للدلالة على القرآن .

بل يمكن أن نضيف ثلاثة على سبيل المثال (المخلص) لأنه يخلص البشر المؤمنين من العذاب الأخروي و(المسعد) لأنه يسعد البشرية في الدارين الأولى والآخرة و(المعذِّب) لأنه حجة على الكافرين والعصاة .

ويطيب لنا أن نسجل ما اقتصر عليه الإمام شيخ المفسرين الطبري (٣١٠هـ) إذ قصر الأمر على أربعة أسماء لها دلالات في المجتمع ، قال : « إن الله تعالى ذكره سمى تنزيله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ أسماء أربعة ، منها القرآن : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : ٧٦] ومنها الفرقان : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] ومنها الكتاب : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف : ١] ، ومنها الذكر : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] [الحجر : ٩] .

فقد دلّ الطبري على أولوية الاسم الأول وأحقيته بالتسمية وهو الأشهر بلا منازع ، وسبب التسمية الثانية أنه يفرق بين الحق والباطل ، وهذه التفرقة فعل لا اسم ، إذ من صفاته أن يفرق بين ثنائية الخير والشر وما يتفرع عنهما ، فهذه صفة مثل لفظة « الفاروق » المتصلة بعمر رضي الله عنه .

أما الكتاب فلأنه مكتوب ، فأطلق المصدر على اسم المفعول ، وأما الذكر فلأنه يذكّر بالحق ، ولو أفردت الأسامي الثلاثة الأخيرة وخرجت

---

(١) جامع البيان ، الطبري : ١/ ٣٠ .

من السياق القرآني لما عنت القرآن ، فالكتاب اسم عام وكذلك الفرقان والذكر ، ولكن نقبل بها أسماء تجاوزاً على أنها أشهر الصفات ، ولا بأس هنا أن نذكر أشهر الأسماء التي هي صفات :

الروح : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى : ٥٢] ، لأن القلوب تحيا بالآيات كما تحيا الأبدان بالغذاء ، وأثر القرآن واضح ، فقد أحيا الأمم من رقدتها وشكّل حضارات إنسانية ، وهذا من أقوى وجوه إعجازه ، خصوصاً أن هذه الروح من أمره عز وجل ، فلها خاصية وسر رباني إضافة إلى معنى القوة .

النور : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء : ١٧٤] ويعني أحياناً كل التشريع ، وسمي كذلك لكونه يكشف الحقائق ببراهينه الساطعة ، ويجعلنا ندرك غوامض الحلال والحرام ، وما لا يستقل العقل بالتوصل إليه من علوم العقيدة والشريعة ، كما أنه نور عام لا يقتصر على التشريع ، إذ أضاء الدرب للإنسانية الحقّة ، ورسم المنهج القويم ، واستبعد ظلمات النفس والخرافات ، إنه نور على سبيل المجاز ينير الدرب للفرد والمجتمع ، ولا تستطيع أن تقول : قرأت في النور كذا .

الحكيم : ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس : ١-٣] لأن إحكامه بالغ فلا يأتيه الباطل ، وما اشتمل عليه من فنون الحِكم ، حتى صار كأنه حكيم ينطق بالحكمة .

ب ـ الكتاب والقرآن :

وما سبق تطلعات وأذواق تقصر عن كنوز القرآن ، ولكن لا بد من وقفة بإزاء مصطلح الكتاب لاقترانه في موضعين بالقرآن كما في الآية : ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل : ١] و﴿الٓرٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر : ١] فقد ظن بعضهم أن ثمة فرقاً في

الماهية والحجم والسبق بين القرآن والكتاب ونعود إلى هذا بالتبسيط .

نقول في البداية : إن هذين الاسمين أصلهما اللغوي واحد ، فالكتابة جمع في ضم الحروف بعضها إلى بعض ، والقراءة جمع لكونها ضم الألفاظ بعضها إلى بعض ، وقال الزركشي : « فأما الكتاب فهو مصدر : كتب يكتب كتابة وأصلها الجمع ، وسميت الكتابة لجمعها الحروف ، فاشتق الكتاب لذلك ، لأنه يجمع أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة »[1] .

كما يسمى المكتوب كتاباً على سبيل المجاز ، جاء في القرآن : ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : ٧٨] أي في اللوح المحفوظ ، وذكروا أن أصل الكتب الجمع ، ومنه الكتيبة للجيش لاجتماع المقاتلين فيها ، ثم أطلقت على الكتابة لجمعها الحروف كما أسلفنا .

ويبدو لنا أن الرجوع إلى الأصل اللغوي غير مستساغ ، لأن الكتاب مصطلح محدود واضح تطور عند العرب قبل نزول القرآن ، فإذا قلنا اليوم : وضعت الرسالة في البريد ، لا يعني هذا أنني سلمتها لأعناق الإبل في القافلة ما دامت كلمة البريد كانت تعني القافلة من الإبل .

كما أنه ليس من الضروري واقعياً ولا لغوياً أن يشتمل المكتوب على تعددية وتنوعية ، ثم هل القصص إلا آيات فلماذا يقول الزركشي : (من القصص والآيات) فهذا خطأ ، وإذا اشتمل أي مكتوب على تنوع ـ وهذا بديهي ـ تطلق عليه اسم كتاب فلا خاصية للقرآن الكتاب الأعظم .

وننظر في القرآن فنجد أن كلمة الكتاب تطلق على المنزَّل قبل القرآن وعلى القرآن ذاته وعلى ما كتب في اللوح المحفوظ ، بل يطلق على

---

(١) البرهان : ١/ ٣٤٧ .

رسالة تلقتها بلقيس من سليمان عليه السلام : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٩] ، واسم التوراة كتاب : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الفرقان : ٣٥] ، وفي سجل القدر اللوح المحفوظ ﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبا : ٣] ، وهناك على العموم مصطلح « أهل الكتاب » .

فمصطلح الكتاب ليس إسلامياً خالصاً ، ونستأنس هنا بما قاله الدكتور محمد الدسوقي : « وإذا كان القرآن والكتاب أشهر الأسماء فإن بين الكلمتين فرقاً في الدلالة ، حيث لا تطلق الأولى إلا على كلام الله المعجز المنزل على خاتم الرسل والأنبياء ، على حين تطلق الثانية على كلام الله وعلى غيره ، وإن كانت في عُرف المسلمين إذا أطلقت يراد بها القرآن الكريم »[1] .

ونضيف إلى كلامه أن مصطلح الكتاب خاص برجال أصول الفقه ، فيقال : هذا الأمر فرض عين في الكتاب والسنة ، ولعلهم يرجحون مصطلح الكتاب ، لكونه متصلاً بالمرئي وهو أثبت من الحفظ ، ولأن المرئي مسبوق بحفظ ، فكأن الرؤية زيادة لاستبعاد تدخّل الاجتهاد .

ويبدو أن تسمية الكتاب تدل على أنه روعي في حفظه حفظ الصدور وحفظ السطور فهو من عند الله ، ومكتوب عنده ، كما أنه متلو بالألسن ، مدوّن بالأقلام ، ولا تزال مطابع اليوم العالمية على كفر كثير من أصحابها ساعية في توصيل هذا السفر الأعظم في رونق جميل خدمة للمسلمين ، إذ يطبع على أشكال مذهلة ، وثمة قرآن في صفحة واحدة ، وقرآن من معدن ، وقرآن لا يقرأ إلا بالمجاهر ، وهذا تحقيق لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

---

(١) في تاريخ القرآن وعلومه ، ص/ ١٨ .

فلم يصبه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، إذ لم يتكفل الله هاتيك الكتب ، بل وكلها إلى حفظ الناس قال عز وجل : ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وذلك لأن الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا على التأبيد ، وأن القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها ، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائداً عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سادّاً مسدّها ، ولم يكن منها شيء ليسدّ مسدّه ، فقضى الله أن يبقى القرآن الكريم حجة إلى قيام الساعة .

والجدير بالذكر أننا نوافق جدلاً على هاتين التسميتين للأبعاد الحضارية لمفهوم الكتاب كما جاء عند الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله « إشارة إلى من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً ، فلا ثقة لنا بحفظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلاً بعد جيل ، على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عليه عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر »[1] .

كما أن مفهوم الكتاب فيه ملمح حضاري ، مما يدل على ترفّع المؤمن ، كما أن الكتاب يشي بتقنية دالة على عقل وتَسَامٍ بخلاف المخلوقات من حيوانات وإنس تركوا الإنسية .

والكلمة عربية خالصة ، فلا معنى لما ذكره بعض المستشرقين من إرجاع الكلمة إلى أصل غير عربي من الآرامية أو غيرها ، فذلك زعم باطل ، فالكلمة عربية معروفة قبل القرآن .

---

(١) النبأ العظيم ، ص/ ٣٤ .

ولا معنى لما استنبطه الدكتور محمد شحرور مفرقاً بين الكتاب والقرآن مما يناقض اللغة والمنطق والشرع والعقل معاً ، إذ جعل الثبات للكتاب في عالم غيبي ، والحركة للقرآن في عالم الشهود ملبياً تطلبات البشر والعياذ بالله .

وهذا قرين ما ذكره الدكتور طيب تيزيني : « فالصيغة الإجمالية الكلية التي يظهر فيها النص القرآني في صوغ مبادئه ومعظم أحكامه ، وكذلك في نمط خطابه ، جعلته يبدو بمنزلة (كتاب الهداية) و(كتاب بشرى) و(كتاب رحمة) للمؤمنين ، وليس من حيث هو كتاب قانوني تعليمي يحتوي على كل صغيرة وكبيرة وحتى في حينه ، مما حدا ببعض الباحثين أن يصلوا عبر هذه المسألة إلى أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن (الكتاب) الذي يحيط بكل صغيرة وكبيرة ولا يفرط من ثم بشيء ، ينبغي أن لا تفهم في سياق مجيء القرآن ، أي أن ذلك (الكتاب) ليس هو القرآن الذي أتى ليخاطب الناس في عصره وهو العصر السابع ، وإنما هو (اللوح المحفوظ) الذي يرد أيضاً باسم آخر هو (أم الكتاب) والذي يحتوي كذلك القرآن نفسه ، وبذلك ظهر القرآن نصاً طيّعاً كل الطواعية باتجاه عملية التغير والتحول على الأصعدة الاجتماعية المختلفة ، مثله في ذلك مثل أي نص آخر يجد نفسه ، تباعاً وبوتيرة مطردة ، مدعواً إلى (تقديم الحساب) أمام تلك العملية المركبة ، على عكس (اللوح المحفوظ) الذي يشتمل حسب ذلك كل أعمال البشر وكل (الكتب) في (عالم الغيب المؤجل)[1] » .

قبل مناقشة الدكتور تيزيني نسجل الآيات التي ألمح إليها ، قال

---

(١) النص القرآني ، د . طيب تيزيني ، ص/ ١٨٤ـ ١٨٥ .

تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، والآية : ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] ، والآية : ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : ٤] ، ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ـ ٢٢] ، ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩] .

ونلحظ في هذا المقبوس ملامح سوء فهم وتأويل بعيد ، فكيف يبدو القرآن كتاب الهداية والبشرى والرحمة ، ففعل « يبدو » يحتم الاحتمال وهو على الحقيقة متصف بما ذكر .

وكيف يخلو من القوانين إذا استبعدنا عنه علم كل صغيرة وكبيرة ، فهو ليس كتاباً علمياً ، ولكن ما فيه لا يخالف منطق العلم ، ولا نستطيع أن ندعي أن المسائل الفقهية مجرد ترّهات ومواجيد صوفية .

وليس « بعض الباحثين » يفرق بين الكتاب الأزلي (اللوح المحفوظ) المشتمل على العلم بكل شيء والقرآن المأخوذ من اللوح المحفوظ ، فهذا معتقد كل مسلم .

أما أن القرآن بدا نصاً طيعاً اجتماعياً فهذه فكرة جانحة مستمدة من محمد النويهي ، وهي تصور القرآن موضع أخذ وردٍّ وتصوره نصاً قابلاً للزيادة والحذف والتغيير تبعاً لحال المجتمع تحت حجة الرحمة .

وأما تسمية التغيير بـ (تقديم الحساب) فغير لائقة بقداسة القرآن والاعتقاد السليم .

إن مسألة التفريق بين الكتاب الذي لا يُمس لكونه غيبياً ، والقرآن القابل للتعديلات في النسخ والجمع وأسباب النزول عصارة فكر غريب

ورد عند محمد شحرور ونصر حامد أبو زيد والطيب تيزيني وحسن حنفي بدواعي واقعية النص الإسلامي ، وهذا غير وارد وغير مقبول في أصول الاعتقاد والخبر الصحيح ولا تساعد عليه اللغة .

ونخلص إلى أن الكتاب هو القرآن ذاته منظوراً إليه من جانب الكتابة لا القراءة وليس كل كتاب قرآناً ، بل كل قرآن كتاب ، وإن كان المصطلح الأخير له تعددية المعنى في نص القرآن ذاته .

وهكذا نصل إلى أن الاسم الأوحد هو القرآن الصيغة اللغوية الجديدة لكتاب جديد ، وسائر ما رصده العلماء من الأسماء هي صفات لا أسماء ، فمصطلح القرآن يفي بالماهية ، في حين تفي الصفات بالفاعلية ، ثمة ثابت ومتكرر متنوع ، وهذا ما يؤكده العلماء أنفسهم لدى ذكرهم لسبب التسمية .

كذلك لا يكفي لغوياً أن نقول : الطامة والقارعة والواقعة لنعني بها يوم القيامة ، فهذه صفات تبيّن الفاعلية التي يشترك فيها المسمّى وغيره ، إذ الطم والقرع والوقوع صفات لعدة مسميات .

ولا يمكن أن نعد أسماء الله الحسنى أسماء خاصة به تعالى تحيط بذاته كما يحيط الاسم بالمسمى ؛ أي تطابق الدال على المدلول ، بل صفات ، ونقول : أسماء صفات ، لثباتها في ذاته عز وجل ، ولكون القرآن الكريم أثبت هذا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

يقال : يا رحمن يا رحيم يا غفار يا ستّار . . ، فلا شك في إمكان تمتع البشر بمثل هذه الصفات ، أما الاسم الأوحد الذي لا يكون لغيره فهو الله تبارك وتعالى ، ومن المفيد في شرح معاني الأسماء الحسنى جلاء تجلياتها في حياتنا النفسية والواقعية .

ج ـ اشتقاق مصطلح القرآن :

ثمة آراء متعددة متضاربة ، بعضها يقترب من المنطق اللغوي وبعضها يبعد حتى يبدو ترفاً ذهنياً أو ذوقاً خاصاً ، والاختلاف بين أنه جامد ومشتق ومهموز وغير مهموز ، والنون أصلية وزائدة ، وقد توسعت دائرة الخلاف في أصل الاشتقاق .

١ـ مشتق مهموز : أي هو مصدر لفعل (قرأ) بمعنى تلو مثل غفران ، أي أطلق المعنى المصدري على اسم المفعول تبعاً للآية : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٨] أي قراءته ، ويسند هذا الرأي إلى اللغوي اللحياني علي بن حازم (٢٠٧هـ) .

وعند الأشعري (٣٢٤هـ) شيء من هذا : « إن كلام الله سمي قرآناً لأنه يقرأ بالعربية »[١] ، ورجحه ابن عطية (٥٢٤هـ) وكثير من المعاصرين ، ونظر الأخير إلى قول حسان يرثي عثمان رضي الله عنهما :

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنـ[٢]

أي تسبيحاً وقراءةً ، وليس من مانع يمنع من إرادة الكتاب مباشرة في قول حسان .

٢ـ مشتق غير مهموز : أي هو مشتق من (قرن) بمعنى جمع ، وهو قول أبي عبيدة (٢١٠هـ) وهو قول الأشعري أيضاً رغم أنه ذكر ما سبق في نهاية كلامه ، أي سمي قرآناً ، لأنه يقرن ، أي يضم السور والآيات والحروف فيه[٣] .

---

(١) الإتقان : ١/ ٥١ ، مقدمتان في علوم القرآن ص/ ٢٨٣ .

(٢) ديوان حسان ص/ ٣٥ .

(٣) الإتقان : ١/ ٥١ .

قال الأشعري فيما نقل عنه ابن فورك (٤٠٦هـ) : « وإنما يسمى قرآناً ، لأجل أن العبارة فيه قُرن بعضها إلى بعض ، وأن الجمع والتفرقة في القراءة لا في الكلام . . »[١] ، ومنه حتماً القِران أي الجمع بين العمرة والحج في إحرام واحد ، وعقد القِران الذي يجمع بين زوجين ، مع لفت النظر إلى أن القاف مكسورة هنا وقاف القرآن مضمومة .

وكأن القرآن وحده يمتاز بهذه الميزة أي الجمع بين الأجزاء وكأنه يمكن التفرقة بين المكتوب والملفوظ .

أما الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) فيقول : لا يقال لكل جمع قرآناً ، ولا لكل جمع كلام قرآناً ، وإنما سمي قرآناً ؛ لأنه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة ، وقيل : لأنه جمع ألوان العلوم كلها ، ونظر هؤلاء إلى قوله عز وجل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : ٨٩] ، و﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] فقرأ عند هؤلاء بمعنى جمع وهو رأي منسوب إلى الخوَّاص (٢٩١ هـ) والإمام الشعراني (٩٧٣هـ) إضافة للراغب الأصفهاني .

٣ـ مشتق من القرائن : وهو قول الفراء (١٨٧هـ) النحوي المعروف ، والقرطبي المفسر (٦٧١هـ) لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً ، ويشابه بعضها بعضاً ، فهي حينئذ قرائن ، وعلى هذا الرأي وما سبق هو غير مهموز ونونه أصلية ، لكن الزجاج (٣١١هـ) النحوي المعروف قال : « هذا القول سهو والصحيح أنه ترك الهمز فيه من باب التخفيف ، ونقلت حركة الهمزة الفتحة إلى الساكن قبلها »[٢] أي قُرآن تصبح قُران .

---

(١) تجريد المقالات ، ابن فورك ، ص/ ٦٣ .

(٢) الإتقان : ١/ ٥١ .

ولا نناقش هذا ، ولكن نناقش التشابه الذي نفتقده رابطاً جامعاً بين آيات الجنة وآيات النار ، وثمة ثنائيات كثيرة لا تدعو إلى التشابه .

وتصحيح الزجاج أشار إليه أبو علي الفارسي (٣٧٧ هـ) في « الحلبيات » ، وبحسب الرأي الأخير تكون النون أصلية غير مزيدة في الكلمة ، وكلّه استنباط ضعيف ، فكما أسلفنا لا تقصد المشابهة في القرآن ، بل هناك انسجام في المضامين الفكرية حيث لا تناقض وانسجام في النسق الموسيقي ، أما أن مصطلح القرآن جاء من الجمع (قَرَن) ، فلا شك أن كل كلام هو مجموع من حروف ، فهذا تكلف واضح بعيد عن قواعد اللغة والاشتقاق ، ثم إن لفظ القرآن مهموز ، ولا جدال في هذا .

٤ـ مشتق من القرء : والقرء هو الجمع فالهمزة أصلية وهو مزيد بالنون ، والاسم مأخوذ من قرأ الماء في الحوض إذا جمعه ، هذا ما نقله السيوطي عن الخوَّاص .

يقول : « ماسمي القرآن قرآناً إلا لكونه مشتقاً من القرء الذي هو الجمع ، فقوم يجمعهم بتلاوته على ما فيه من الأحكام والمعاني والاعتبارات والتوبيخات والقوارع والزواجر والآداب ، وقوم يجمعهم بتلاوته على الحق جل وعلا وحده » .

ويبدو لنا أن مبدأ الاشتقاق من قرن وقرائن وقرء بعيد عن منطق اللغة وواقع القرآن الكريم ، وكأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يجمع شيئاً إلى شيء على سبيل الجمع أو التشابه .

ويبدو أن هذا الرأي يوازي الثقافة التجميعية حينذاك ، وإلا فكيف نقبل سبب التسمية بحسب رأي ابن الأثير (٦٠٦هـ) قال : « وسمي القرآن قرآناً ، لأنه جمع بين القصص والأمر . . والوعد والوعيد والآيات

والسور بعضها إلى بعض وهو مصدر كالغفران والنُكران »[1] .

لكن عندما تنزلت هذه التسمية (القرآن) أول تنزل لم يكن ثمة جمع ، إذ لم ترتب الآيات والسور مع أول تنزل ،كما أن هذه المفردة تطلق على الكل والجزء .

٥ـ **رأي الشافعي** : قال الشافعي رضي الله عنه : « وقرأت القرآن عن إسماعيل بن قسطنطين ، وكان يقول : القُران اسم وليس مهموزاً ، ولم يؤخذ من قرأتُ ، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قُرآناً ، ولكنه اسم للقُران مثل التوراة والإنجيل ، يهمز قرأت ولا يُهمز القُران »[2] .

فهذا يعني أن القرآن اسم عَلَم لكتاب الله غير مشتق وغير مهموز خلافاً لكل ما سبق من آراء .

ولكن نتساءل هل يوجد قراءة بالتخفيف لهمزة اللفظة ، أجل فقد ورد في الإتقان ولسان العرب السند الذي يحتج به إسماعيل فقد : « قرأ على شبل ، وأخبر شبل أنه قرأ على عبد الله ابن كثير ، وأخبر عبد الله أنه قرأ على مجاهد ، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبيّ ، وقرأ أبي على النبي ﷺ »[3] .

فالقُران قراءة متواترة وهي قراءة عبد الله بن كثير (١٢٠هـ) وحده كما تثبت كتب القراءات ، وقد أخلص الشافعي لقراءته ، فهو لا يلفظها إلا (قُران) ، وهذا ما نجده مثلاً في كتابه « الرسالة »[4] ، وهذا ما لم يشر إليه الدارسون إذ اكتفوا بالنقل .

---

(١) النهاية في غريب الحديث : ٤/ ٣٠ وهو رأي البغوي في شرح السنة : ٤/ ٤٢٨ .

(٢) تاريخ بغداد : ٢/ ٦٢ ومناقب الشافعي : ١/ ٢٧٧ .

(٣) لسان العرب مادة (قرأ) ، الإتقان : ١/ ٥٠ـ ٥٢ .

(٤) راجع التسهيل لقراءات التنزيل ، محمد فهد خاروف ، ص/ ٢٨ ، والرسالة صفحات متفرقة .

ولكنَّا لا نذهب معه إلى أن كلمة القرآن عَلَم غير مشتق ، فالاشتقاق من القراءة واضح ، وليس من المعقول لغوياً أن تكون مفردتا التوراة والإنجيل غير مشتقين ، لأن الأصل الفعلي للكلمات أساس في اللغات السامية .

فالشافعي رضي الله عنه قرشي وقريش لا تهمز فتقرأ (قرا) بدلاً من قرأ ، والقراءات راعت اللهجات ، وليس من البعيد أن يأخذ الإمام قراءة قبيلته ، هذا صحيح ، إلا أن العَلَمية (كون اسم القرآن علماً) غير مقبولة ، واللافت للنظر أن الإمام السيوطي يرجح ، وليس من عادته رأي الشافعي من غير تفسير للقضية .

والذي نرجحه من هذه الآراء ما جاء عند اللحياني فهو مهموز مشتق من فعل قرأ فهو مصدر بوزن جديد وضعه القرآن ذاته ، للفت النظر إلى جِدَّة الرسالة السماوية من خلال العدول عن مصدر القراءة إلى القرآن ، وإذا كان اسم مفعول ، فهذه دلالة على أنه سهل القراءة وكأنه يُقرأ من غير أية عناء ، فهو سهل التأثير ، وكأنه مقروء بذاته .

فالصحيح والأقوم ما ذكره اللحياني وذلك لسببين :

الأول معنوي فكري ، لأن القرآن دعا إلى التحضر والرقي ، فكانت أول كلمة من الوحي القرآني « اقرأ » ، وهي مفتاح الحضارات ، فالمسلمون أمة اقرأ ، ثم أثبت القرآن بعد هذا أن المعرفة الصحيحة سبيل إلى سعادة الدارين ، ورسم المنهج القويم للأمة العربية التي قادت الأمم لقرون متعددة ، وهذا ينطبق على عصرنا ، إذ لا نتخلص من إشكالاتنا إلا بالمعرفة الصحيحة للذات والموضوع .

والسبب الثاني أن القراءة تعني النسق الموسيقي الرائع الذي تمتع به القرآن ، من انسجام بين الحروف ، وتدفق هرموني في نسيج الآيات

ومطابقة الصوت للموضوع ، ولا شك أن أول ما جذب العرب الفصحاء فيه تلك الطبقة الحسية الصوتية ، أو ما يدعى بالصورة الأولى للنص ، والمعروف أن التغني بالقرآن سنة ، قال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن »[1] .

والحق أن العرب استخدموه للدلالة على معنيين : التلاوة والحمل ، ولكن ثمة تطور حصل في لغتنا منذ الجاهلية ، وهكذا نستبعد رأي الدكتور صبحي الصالح إذ يقول رحمه الله : « والعرب في الجاهلية حين عرفوا لفظ (قرأ) استخدموه بمعنى غير معنى التلاوة ، فكانوا يقولون : هذه الناقة لم تقرأ سلى قط ، يقصدون أنها لم تحمل ملقوحاً ولم تلد ولداً ، ومنه قول عمرو بن كلثوم : هجان اللون لم تقرأ جنينا ، أما قرأ بمعنى (تلا) فقد أخذها العرب من أصل آرامي وتداولوها ، فمن المعروف كما يقول برجستراسر أن اللغات الآرامية والحبشية والفارسية تركت في العربية آثاراً لا تُنكر ، لأنها كانت لغات الأقوام المتمدنة المجاورة للعرب في القرون السابقة للهجرة ، . . ومهما يكن من شيء ، فإن تداول العرب قبل الإسلام للفظ (قرأ) الآرامي الأصل بمعنى (تلا) كان كافياً لتعريبه واستعمال الإسلام له في تسمية كتابه الكريم »[2] .

ولا شك أن المستشرقين المعتدلين والمتطرفين منهم يهدفون إلى أشياء أبعد من التسمية ، لينقشوا في نفوس ضعاف الإيمان أن القرآن تسميةً ومضموناً من مخلفات الأمم السابقة ، وما ذكره الدكتور صبحي لم تقرَّ به اللغة .

فكلام هذا المستشرق مدفوع من عدة جوانب ، فهو ليس بعربي ، ولم

---

(١) رواه البخاري وأحمد وأبو دارد انظر فيض القدير : ٥/ ٣٨٧ .

(٢) مباحث في علوم القرآن د . صبحي الصالح ، ص/ ١٩ـ ٢٠ .

يطلع على الاستعمال اللغوي باستقراء وشمولية ، بل يخلو من الموضوعية في رأينا ، فوجود المعنى الحسي السابق (الحمل) لا ينفي استخدام الكلمة لشيء آخر وهو التلاوة ، ثم إن الزركشي ينقل أن لفظ القرآن مشتق من قرأ بمعنى أظهر وبيَّن ، وأن القارئ يظهر القرآن ويخرجه[1] .

والدليل كما يقول الأصوليون : « إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال » ، فاتصال العرب بالآرامية لا يحتمل أن تستورد لفظة القراءة ، وإذا كانت العربية تتطور ، فلماذا لا يكون العكس ؛ أي أن الكلمة عربية أولاً انتقلت إلى الآراميين وفقدتها لغتنا عند نزول القرآن ولم لا تكون بهذا المعنى في اللغتين معاً .

وبعد أن قال عز وجل : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف : ٢] لا مجال لأن نعيد اسم الكتاب إلى مصدر آرامي ، والأمر ذو حساسية لأنه يتعلق بالعقيدة من بعيد أو قريب وذو مخاطر استشراقية كما أسلفنا ، فالمسلم لا يستسيغ مثل ما جاء عن برجستراسر لقوله تعالى : ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النمل : ١٠٣] .

ونقر بأن كلمة (قرأ) جاءت في معنى : جمع ، حمل ، تلا ، أظهر ، وكلها معان لا تخالف القرآن ، فالقرآن جامع مجموع ، ونص متلو ، وإظهار للغيب ، ومعنى الحمل في أن قراءة القرآن ولادة وهذا ملمح جليل ، وإذا نظرنا إلى أزلية القرآن الذي كان قبل نشوء اللغة العربية وجدنا شيئاً من الصحة في عَلَمية اسم القرآن عند الشافعي .

ومن الآراء المرجوحة التي تدل على سمة التجميع الهش ما نقله السيوطي من الجاحظ (٢٥٥هـ) الذي يقول : « سمى الله كتابه اسماً

---

(١) البرهان : ١/ ٢٧٧ .

مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجُمل والتفصيل ، سمى جملته قرآناً كما سموا ديواناً ، وبعضه سورة كقصيدة ، وبعضها آية كالبيت ، وآخرها فاصلة كقافية »[1] .

فهذا القول يحتاج إلى مناقشة ، وليس له أصلاً سند ديني يعضده ، ومن الممجوج قراءته في كتاب يشتمل على علوم القرآن مثل الإتقان ، ومن المكروه أن يمر التحقيق ـ تحقيق الكتاب ـ بمثل هذه العبارة بسلام .

وذلك لأن كلمة الديوان الفارسية الأصل لم تكن معروفة في زمن نزول القرآن ، فكيف تكون المعارضة بعد زمن ؟ كذلك لم يطلق مصطلح البيت على الشطرين المعروفين في الشعر إلا في وقت متأخر ، ولم يُسمِّ القرآن رؤوس الآيات فواصل ، أما القصيدة فقد وجد معناها في العصر الجاهلي ، ولكن لا معنى للمعارضة .

فالمغايرة أنه أطلق اسم القرآن على ما هو مقروء لأول مرة، قال الدكتور نور الدين عتر حفظه الله : « والسرّ في ذلك حكم جليلة ، نذكر منها :

١ـ الدلالة على خصائص القرآن وفضائله .

٢ـ الإشارة إلى انفصال هذا القرآن عن سائر الكلام لعلوّه في سماء الإعجاز وكونه كلام الله المجيد »[2] .

والجدير بالذكر أن اللفظ المعرف « بأل » التعريف (القرآن) يقتصر على هذا الكتاب العظيم ، أما كونه غير معرف ، فقد يقصد به القرآن الكريم ، وقد يقصد معنى القراءة كما في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ [القيامة : ١٧ـ١٨] .

---

(١) الإتقان : ١/ ١١١ .

(٢) القرآن الكريم والدراسات الأدبية ، ص/ ١٠ .

كذلك إذا أطلق اللفظ المعرف قصد به القرآن الكريم كله كما في الآية : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] ، ولا يُطلق المعرّف على بعض القرآن إلا مقيداً بقرينة كما في قوله ﷺ : « زوجتكها بما معك من القرآن »[١] ، وقول الفقهاء : يحرم على الجنب والحائض والنفساء قراءة القرآن ، والمقصود أي جزء منه .

أما اللفظ المذكور فيقصد به الكل والبعض على السواء ، بمعنى إذا أطلق لا يُقصد به مجموع القرآن كله إلا إذا دلت القرائن على ذلك : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف : ٢] .

وليس من نافلة القول أن نذكر أن « أل » التعريف ليست للتعريف ههنا كما في كلمة أخرى ، وإنما هي للمح الأصل كما يقول علماء النحو ، أي دخلت لتبين أن القرآن أصله مصدر كما نقول : الفضل بن العباس ، فإن « أل » التعريف فيهما ليست للتعريف كما في الرجل والشجرة والبيت ، ويمكن أن تفيد صاحبها التعريف ، لأنه معرفة قبل دخولها وبعده ، وكذلك لفظ القرآن فهو علم قبل دخول أل[٢] .

ويشيع عند العوام كون المصحف اسماً للقرآن الكريم ، بل يقسمون به خطأ على أنه كلام إلهي ، فهي تسمية من وضع الناس مأخوذة أصلاً من الصحف لا من مضمونها ، يقول الدكتور فهد الرومي : « إن المصحف ليس اسماً للقرآن ذاته ، وإنما هو اسم للصحف التي كتب عليها القرآن ، ولم يطلق عليه (المصحف) إلا بعد جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في صحف ضم بعضها إلى بعض ، فسميت مصحفاً ، ولهذا نرى العلماء يتحدثون عن حكم بيع المصحف ، ولم يقل

---

(١) البخاري ، فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن ح (٥٠٢٩) .
(٢) إتقان البرهان ، د . حسن فضل عباس ، ١/٤٦ـ٤٩ .

أحد منهم بيع القرآن ، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى ، أما المصحف فهو عمل البشر وصناعتهم التي يبتغون بها الرزق والكسب الحلال »[1] .

وليس يصحّ أن نقول : (القرآن المرتل) كما رأى بعضهم عام ١٩٦٤ في مصر[2] لدى إطلاقه على الأسطوانات المسجلة حينذاك ، فالصحيح أن نقول : (المصحف المرتل) ، وذلك لأن الصحابة البررة اختاروا (المصحف) لكونه متصلاً بالجسم المادي ولم يفهم أن المجموع قرآن والحامل جسم مادي ، فالقرآن كلمات غيبية مجردة عن المواد .

يقول علماء الكلام : « كلام الله تعالى غير مخلوق ، وهو مكتوب في المصاحف ، محفوظ في الصدور ، مقروء بالألسن ، مسموع بالآذان ، غير حالّ في شيء منها » .

ويقول الآلوسي بعد سرد كلام أهل السنة : « فقولهم : (غير حالّ) إشارة إلى مرتبته النفسية الأزلية ، فإنه من الشؤون الذاتية ، ولم تفارق الذات ولم تفارقها أبداً ، ولكن الله تعالى أخذ صورها في الخيال والحس ، فصارت كلمات مخيّلة وملفوظة مسموعة ومكتوبة ومرئية ، فظهر في تلك المظاهر من غير حلول »[3] .

وكلمة المصحف عربية خالصة ، جذورها اللغوية واردة في القرآن ، ولا نريد أن نصدق رواية تاريخية واهية ، فنفتح ثغرة لضعاف الإيمان والمستشرقين، وهكذا لا نوافق المظفري إبراهيم بن عبد الله (٦٤٢هـ) .

يقول المظفري : « لما جمع أبو بكر القرآن قال : سموه ، فقال بعضهم : إنجيلاً ، وقال بعضهم : سموه السفر ، فكرهوه من اليهود ،

---

(١) دراسات في علوم القرآن ، ص/ ٣١ .

(٢) راجع الجمع الصوتي الأول للقرآن د . لبيب السعيد ، ص/ ٧٣ـ ٧٤ .

(٣) روح المعاني ، الآلوسي : ١/ ١١ .

فقال ابن مسعود : رأيت للحبشة كتاباً يدعونه المصحف فسموه به »[1] .

وكأن هذا القول يعجب الدكتور محمد الدسوقي ، فينقله عن دائرة معارف الشعب في ليبيا : « وكلمة المصحف وإن كانت حبشية الأصل ، فقد قربتها إلى المسلمين الأخوة اللغوية بين العربية والحبشية في الأسرة السامية »[2] .

ولم نكن نعرف قبل هذا أن الحبشية لغة سامية وهذا عجيب ، ولا نستغرب إذ نجد الزركشي ينقل هذا الكلام من كتاب للمظفري مفقود ـ ولله الحمد ـ اسمه التاريخ المظفري ، فهو مؤرخ ، ولا علاقة له بقوة السند وصحة القول .

فهذا الكلام بالنقد الخارجي غير مسند ، وهو رواية تاريخية كالأعاجيب الكثيرة التي يتفوه بها مؤرخون .

أما النقد الداخلي : فهل يعقل أن يقترح الصحابة الكرام تسمية جمع القرآن بالإنجيل ، والأخير كتاب لغيرهم ، وكيف يطلق اسم واحد على مسميين ما دام الإنجيل يعني كتاباً سماوياً سابقاً ؟ وهل يعقل أن يقترحوا اسم السفر وقد شبه اليهود بالحمار يحمل أسفاراً ، ثم إن المطلوب تسمية للمجلد ، والتوراة والإنجيل اسمان للمضمون لا للمجلدين .

ولا يُعقل أن يدعي ابن مسعود رضي الله عنه معرفة لغوية بالحبشية الغريبة ولا ذكر أنه سافر وعاشر الحبشيين ؟ ، فهل نطقت الكلمة في الحبشة بأصوات (مصحف) كما عندنا في العربية ، وإذا أراد ترجمة لكلمة مصحف فقد وصل إلى مدلول عربي .

---

(١) البرهان : ١/ ٣٥٣ .

(٢) في تاريخ القرآن ، د . محمد الدسوقي ، ص/ ٥١ .

والمصطلح كما نرى ليس غريباً عن البيئة العربية التي تعرف الصحف فالاشتقاق من الصحف سليم لغوياً ، ثم هل كان ثمة كتاب غير الإنجيل عند أهل الحبشة حتى يصرح به ويلمح إليه في المقبوس ؟

إذن فقد درجت هذه التسمية المشتقة من الصحف من غير اجتماع أو مشورة ، مع أن الراجح أن تسمية المصحف كانت في عهد عثمان رضي الله عنه بعد تسمية (الصحف) في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وثمة آراء تسجل وجود المصطلح قبل جمع عثمان فيقال بوجود مصحف أبي ومصحف علي ومصحف ابن عباس ومصحف ابن مسعود ، فإن وجدت فلا نظنها تامة كالمصحف عند أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً .

بقي أن نذكر فائدة فقهية قائمة على تقنية عصرية ، إذا كان العلماء قد فرقوا بين القرآن والمصحف ، فإنهم تحدثوا عن حكم بيع المصاحف ، ولكنهم استحبوا التأدب وبعضهم أوجب لفظ الهبة ، وهذا يؤدي بنا إلى تحريم مسّ المصحف .

ولكن هل يُعد ما يظهر على شاشة الحاسوب من القرآن وشريط الكاسيت أو المذياع الناطق بالقرآن أو رسائل الهاتف الجوال قرآناً أو مصحفاً ؟ ولا ننسى أن الشافعي يحرّم شدّ الناقة التي تحمل آية على ظهرها .

الحقيقة أن ما نراه مجرد أضواء وما نسمعه مجرد أصوات ، وليس يجب على لامس هذه الأشياء الوضوء ، ولكن ندعو إلى هذا تقديساً على سبيل التنزيه أو الكراهة التحريمية ، إذ ليس من اللائق أن تمس هذه الأضواء على غير طهارة ، كما أن الشاشة بمنزلة الصحيفة .

وأخيراً لسنا نمانع الدارسين في إحصاء ما سموه أسماء القرآن الكريم ، فهذا دليل تشريف وتقديس ، وليس من التكليف ، ولكن ينبغي

أن ينقلب البحث من وصف إلى فعل ومن دراسة وصفية إلى بحث فعال ، فلا جدوى من الجمع والتزيد في هذا المضمار والانشغال به في حدود الوصف .

فالله عز وجل له الأسماء الحسنى ، إن كانت أسماء أو صفات ، فإن البحث فيها وإحصاءها يدل على اهتمام بالذات الإلهية وتجلياتها في واقعنا ، وعلى رصد سلوكنا وفق تجليات هذه الأسماء .

ويحسن تبيين الفائدة من تسمية القرآن الكريم ، ليتسم البحث بتطلع ديني يحدد خصوصية القرآن الكتاب الأعظم ، ويسعى إلى استنهاض الهمم ، للعودة إلى هذا الكتاب الأعظم بعد معرفة خصائصه في الشكل والمضمون .

* * *